حقيقة الانتصار
في ضوء القرآن الكريم

إعداد

د/ محمد بن مصطفى بكري السيد

١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن للتدبر، وجعله أصلاً للتفكر، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الذي كان يترجم القرآن بقوله وفعله، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:-

فمنذ خلق الله الخلق وجد الخير والشر ، ووجدت سنة التدافع ، وهي ماضية إلى يوم القيامة.

والتدافع ربما يكون بين النفس الأمارة بالسوء وبين النفس اللوامة ، والنفس الأمارة ربما كانت الهوى ، وربما كان الشيطان وراءها.

ومن جانب آخر ؛ فإن التدافع ربما يكون خارجياً بين عدوين ، كل منهما يحاول أن ينتصر على الآخر فيكسره أو يقصره على أتباعه أو ترك ما هو عليه .

ولما كان التدافع له علاقة بالنفوس وطبائعها ؛ كان لابد من وضع ضوابط له حددها الشارع في مواضع كثيرة ، وناقشها من جوانبها المختلفة .

ولعل أهم الأمور المتعلقة بالتدافع والناتجة عنه مسألة الانتصار ، وهي مسألة بالغة الأهمية والخطورة ، نظراً لتعلقها بحياة المسلم وحياة القائد وحياة الداعية ولذلك جاء البحث بعنوان : حقيقة الانتصار ، لمناقشة هذا الموضوع من جوانبه المختلفة .

لقد كنت بادئ ذي بدء أظن أن هذا الموضوع صغير ، وأن الآيات التي تحدثت عنه قليلة، غير أني فوجئت بكم كبير من الآيات ، تتحدث عن النصر والإنتصار جاوزت المائة، ولذلك قررت الاقتصار على عدد من الحقائق ، مبيناً طريقة القرآن في عرضها، آملاً أن تجدوا فيها ما يكون جديداً ومفيداً .

النصر في اللغة :

جاء في معجم مقاييس اللغة : " النون والصاد والراء ؛ أصل صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه.

ونصر الله المسلمين ؛ آتاهم الظفر على عدوهم ، ينصرهم نصراً ،..

وأما الإتيان ؛ فالعرب تقول : نصرت بلد كذا ؛ إذا أتيته .." (١)

وفي لسان العرب : " والنصر : إعانة المظلوم .. وفي الحديث : " **انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ..**" (٢) وتفسيره : أن يمنعه من الظلم إن وجده ظالماً ، وإن كان مظلوماً أعانه على ظالمه...

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة نصر : ٤٣٥/٥.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المظالم والغضب، رقم الحديث (٢٢٦٣).

والنصرة : حسن المعونة قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ الحج (١٥).

وانتصر الرجل : إذا امتنع من ظالمه ، قال الأزهري : يكون الانتصار من الظالم الانتصاف والانتقام ..

والاستنصار : استمداد والنصر ، واستنصره على عدوه : أي : سأله أن ينصره عليه...

ونصر الغيث الأرض نصراً : غاثها وسقاها وأنبتها ...

ونصره ينصره نصراً : أعطاه ، والنصائر ، العطايا ، والمستنصر : السائل" (١).

وفرّق أبو هلال العسكري بين الإعانة والنصرة فقال :" النصرة : لا تكون إلا على المنازع المغالب ، والخصم المناوئ المشاغب ، والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره ؛ تقول : أعانه على من غالبه ونازعه ونصره عليه ، وأعانه على فقره ، إذا أعطاه ما يعينه ، وأعانه على الأحمال ، ولا يقال نصره على ذلك ، فالإعانة عامة ، والنصرة خاصة" (٢).

وجعل الكفويُّ النصر أخص من المعونة" لاختصاصه بدفع الضر ، وتعدية النصر بمن تضمنه الحفظ ، وبعلى لتضمنه الغلبة " (٣) .

ومن خلال النظر في كلام أهل اللغة حول معاني كلمة " نصر " ؛ يمكن لي أن ألخص لها سبع معاني ، وهي :-

١- الظفر على العدو : نصر الله المسلمين ، ينصرهم نصراً .
٢- الإتيان : نصرت بلد كذا ؛ إذا أتيته .
٣- إعانة المظلوم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .
٤- حسن المعونه : من كان يظن أن لن ينصره الله .
٥- الامتناع من الظالم بالانتصاف والانتقام .
٦- الإغاثة : نصر الغيث الأرض .
٧- العطاء : نصره ينصره أي أعطاه.

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة نصر ٥/٢١٠-٢١٢ .

(٢) الفروق لأني هلال العسكري ، الباب الثالث عشر، الفرق بين الإعانة والنصرة ص (٢٠٨).

(٣) الكليات، للكفوي، مادة نصر ، ص(٩٠٩).

وإذا نظرنا إلى هذه المعاني السبع نجد أنها تعطي تصوراً واضحاً يتجاوز مسألة الصراع التي تتبادر إلى ذهن كل إنسان، حين يكون الحديث عن النصر ، حيث يعتقد أنك لابد أن تكون أمام طرفين أحدهما منتصر والآخر مهزوم ، وهذا الطرفان لا بد أن يكونا – بالتالي – متضادين.

إن معنى منع الظالم من ظلمه ، وإعانة المظلوم على ظالمه ؛ يعطي مفهومين جديدين ، يمكن التعبير عنهما باللغة المعاصرة بالرقابة في الأول ، والمؤازرة في الثاني .

إنك حين تكف الظالم عن ظلمه ؛ فكأنك نصرته على نفسه وهواه وشيطانه، ولربما جنبت الأمة خطراً محدقاً بها ، نتيجة كف هذا الظالم عن الظلم ، وخاصة إذا كان هذا الظلم يتعلق بالجماعة وليس بفرد ، أو نزوة عابرة .

ومن جانب آخر، فحين تقف مع المظلوم مؤازراً له ليأخذ حقه ، وينتصر على ظالمه؛ فأنت – بلاشك- تعيد الأمور إلى نصابها ، وتضع الحق في موضعه الصحيح.

وإذا نظرنا إلى النصر على أنه العطاء ؛ سوف نحلق معاً في معنى جديد ومفيد ، حين يعيش الإنسان ليعطي بكل معاني العطاء ، ومنها : إتقان العمل ، والبذل بكل أنواعه ،والغوث للمحتاج أياً كان نوعه ، وأياً كان المحتاج .

وإزاء ذلك فهي أنواع جديدة من الانتصار على النفس بما تحمل من الهوى ، والشح ، والعجز ، والانتصار على الشيطان ووسوساته المختلفة.

كما تتجاوز الانتصار الفردي إلى الانتصار للجماعة أو الأمة ، إذا كان الأمر الذي سوف ينتصر له متعلقاً بها .

النصر في القرآن الكريم :

جاء في إصلاح الوجوده والنظائر ما نصه :

" ن ص ر على أربعة أوجه : المنع ، العون ، الظفر ، الانتقام ، فوجه منها :-

النصر : المنع ، ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٨ ﴾ البقرة (٤٨)، ﴿...... هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ٩٣ ﴾ الشعراء (٩٣)..

الثاني : النصر : العون : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾ الحج (٤٠)

الثالث : النصر : الظفر :﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١٢٦ ﴾آل عمران (١٢٦).

الرابع : الانتقام :" ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ ....﴾ الشورى(٤١)وقوله :﴿ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ ﴾ محمد (٤)(١) .

كما أضاف صاحب المفردات معاني جديدة للنصر ، إذ يقول : " ونصرة الله للعبد ظاهرة، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده ، والقيام بحفظ حدوده ، ورعاية عهوده ، واعتناق أحكامه واجتناب نهيه.. والتناصر : التعاون .. ونصرت فلان : أعطيته ، إما مستعار من نصر الأرض أو من العون"(٢).

وقال صاحب بصائر ذوي التمييز" والنصير : الناصر ، والجمع أنصار ، وجمع الناصر نصرُ، كصاحب وصحب "(٣) .

وهنا أضاف الراغب الأصفهاني معنى جديداً للنصر وهو الالتزام بشرع الله تعالى بفعل الأوامر وترك النواهي ورعاية العهود ، وحفظ الحدود .

١- علاقة الانتصار بالظلم :

الظلم عمل مقيت ، يبغضه الله تعالى ، ونزه نفسه عنه ، كما يبغضه لعباده ونهاهم عنه.

وحين يحل الظلم في أمة من الأمم ؛ فهو – بلا شك- آية زوالها ، وعلامة اضمحلالها.

ولذلك فإن القرآن الكريم ندبنا إلى الانتصار من الظالم ،وعدم الاستكانة والرضى بالظلم بكل الوسائل المشروعة ، محذراً من تجاوز الحد في ذلك ، حتى لا يصبح الانتصار من الظالم ظلماً من نوع آخر.

لقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الذي ينتصرون من ظالميهم فقال :﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ الشعراء (٢٢٧) .

والانتصار في هذه الآية هو انتصار شعراء المؤمنين الذين " انتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلماً بشعرهم وهجائهم إياهم ، وإجابتهم عما هجوهم به"(٤) .

لكن هذه الآية ، وإن كانت نازلة في سبب خاص ؛ إلا أنه يدخل فيها كل من انتصر من بعد ما ظلم ، وذب عن دين الله تعالى بلسانه وقلمه ، بل يدخل منها كل من نشر الخير وسعى إلى إصلاح الناس . (٥) .

---

(١) إصلاح الوجود والنظائر للدامغاني مادة نصر ، ص : (٤٥٨-٤٥٩).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن . للراغب الأصفهاني. مادة نصر ، ص (٨٠٨).

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . الفيروز أبادي ، بصيره في نصر ٦٩/٥.

(٤) جامع البيان ، للطبري ١٣٠/١٩.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٦٧/٣، وتيسير الكريم الرحمن ، للسعدي ص ٧٠٢.

وإذا ما أردنا أن نتوسع في مفهومها أكثر من ذلك ، فإنه يدخل فيها كل من يخاطب الناس من خلال تصور إسلامي أصيل ، على أن يكون في الوقت نفسه ممسكاً بزمام الكلمة ، متقناً لناصية القول.

غير أن هذا الانتصار – من جانب آخر– يجب أن يكون بالحق " وبما حده الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك ، فقد انتصر الباطل " (١) .

لأن المسلم مأمور بالعدل حتى مع أعدائه ، فليس له أن يتجاوز في الانتصار لنفسه أو لدينه ، كما يحدث عند فئام من الناس حين غلوا في الانتصار من الظلم، وبلغوا حداً تأباه الشرائع بل يأباه المنطق والعقل ، حيث سحقوا مخالفيهم بشكل لم يسبق له مثيل .

وإذا ما كانت هذه الآية تتحدث عن حادثة عين ، فإن الله تعالى أباح الانتصار من الظالم في مواضع آخر من القرآن، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ ﴾ الشورى (٣٩) ، إلى أن قال: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ ﴾ الشورى (٤٠-٤٢).

تأمل في الآية الأولى ، وتأمل في قول ابن جرير رحمه الله ، إذ يقول : " هو كل باغ بغى فحمِد المنتصَر منه ... وهذا القول الثاني أولى في ذلك بالصواب ، لأن الله لم يخصص من ذلك معنى دون معنى ، بل حمد كل منتصر بحق ممن بغى عليه.

فإن قال قائل : وما في الانتصار من المدح ؟ قيل : إن في إقامة الظالم على سبيل الحق، وعقوبته بما هو أهل تقويماً له ، وفي ذلك أعظم المدح " (٢) .

إن مقاومة البغي – على اختلاف صوره وأشكاله – أمر مطلوب من المسلم بحسب قدرته واستطاعته ، فلا ينبغي للمرء أن يستكين للظلم ، بسبب من العجز أو الذلة.

كما أنه لا ينبغي أن يستكين لانتهاك حرمات الله تعالى بسبب ظهور المنكرات أو عدم إقامة شرعه.

وإدخال ضمير الفصل " هم " في قوله: " هم ينتصرون" : " لإفادة تقوي الخبر ، أي لا ينبغي أن يترددوا في الانتصار لأنفسهم .

وأوثر الخبر الفعلي هنا دون أن يقال : منتصرون ؛ لإفادة معنى تجدد الانتصار كلما أصابهم البغي "(٣) .

إن هذه الصفات والمحامد التي مدح فيها المؤمنون المذكورون في هذه السورة تدل على تلازم عدد من الأمور لا يمكن أن تنفك عن بعضها ،فقبل هذه الآية أثنى الله على المؤمنين بالإيمان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ١٣/١٠٢.

(٢) جامع البيان ٢٥/٣٧-٣٨.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/١١٤.

والتوكل عليه، واجتناب الكبائر والفواحش ، والاستجابة لربهم ، وإقامة الصلاة والإنفاق في وجوه البر والشورى في أمورهم ، والقوة والانتصار على البغي .

وفي هذا ملمح مهم جداً أن المرء بحاجة إلى كل هذه الأمور مجتمعة ، ولا يكفي انشغاله بالعبادات والطاعات ، عن ترك المنكرات ، ولا يكفي هذا أن الأمران عن الشورى ،ولا يكفي كل ذلك عن الانتصار على البغي أياً كان ، وهي أمور متى عقلها المرء ، توسع أفقه، وبرز فهمه.

غير أن ثمت تفصيل فقهي يحسن ذكره هنا ، وهو هل الانتصار من الباغي على كل حال ، أم أن الأمر بحاجة إلى تفصيل ؟

أجاب عدد من الفقهاء عن ذلك بتفصيل فقهي يمكن إجماله بما يلي :-

١- أن يكون الباغي معلناً فجوره ، مصراً على البغي والظلم ، فالأفضل الانتصار منه ،بل أن يتناصر المؤمنون حتى يزيلوا هذا البغي ، ويدفعوه عنهم ، وفي مثل ذلك ، يقول إبراهيم النخعي رحمه الله : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ ﴾ الشورى (٤١)

٢- أن يحدث من الباغي زلة ، فيعترف بها ولا يصرّ عليها ، ويندم عليها ، ويتوب إلى الله تعالى ، فالعفو هنا أقرب للتقوى، امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣ ﴾ الشورى (٤٢) (١).

وعلى كل حال فإن هذا الأمر يشمل الفرد كما يشمل الجماعة ، فالباغي قد يكون فرداً وقد يكون جماعة. ومثله المبغي عليه ، غير أن الانتصار على الباغي ربما يحتاج إلى تنادي الناس والتعاون فيما بينهم لإعادة الحق إلى نصابه ، وعدم التعدي على الآخرين.

٢- علاقة الانتصار باليأس :

ثمت علاقة واضحة بين اليأس والانتصار ، حيث كلما أسودّت الأيام ، وشعر الناس بالمحن والزلازل وقد بلغت منهم كل مبلغ وظنوا أن النصر بعيد ، جاءهم فرج الله، ففرح به المؤمنون ، وفرّج الله عنهم .

وقد جاء الحديث عن هذه المعاني في مواضع كثيرة من القرآن ، وفي غزوات كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿..... وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤ ﴾ البقرة (٢١٤).

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٦/٢٦-٢٧.

هذه الآية قيل أنها نزلت في غزوة الخندق(١) حين لقي المسلمون ما لقوا من الشدة والأذى الذي صوره القرآن تصويراً دقيقاً في سورة الأحزاب، فاستبطئوا النصر واستفتحوا بقرب الفرج، فسألوا : متى نصر الله ؟

لكن الله يبين لهم أن دخول الجنة يحتاج إلى قدر عال من البذل والتضحيات ، وأن الأمة مدعوة إلى أن تتأسى بمن كان قبلها حيث أصابتهم البأساء والضراء فلم يصرفهم ذلك عن دينهم.

جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : قلنا يا رسول الله : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ، فقال : **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفَر له في الأرض فيَجعَل فيها فيُجاء بالمنشارِ فيُوضَعُ عَلَى رأسه فيُجعَلُ نصفين ويُمَشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فَمَا يصدّه ذلك عن دينه والله ليتمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حَضرموت لا يخافُ إلاّ الله والذّئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون** "(٢).

فتأمل الجزء الأول من الحديث وهو يصف حال هؤلاء القوم من التعذيب ، وتأمل التفاؤل في آخره بإتمام هذا الدين ، وبيان مستقبله المشرق.

وفي الآية تعبير بليغ جداً عن مدى الشدة التي عانوا منها حين قال : (وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ ...)

أي : " بلغ بهم الأمر إلى غاية يقول عندها الرسول والذين معه متى نصر الله ...

(ومتى) : استفهام مستعمل في استبطاء زمان النصر " لا للشك والارتياب فيه ، نتيجة هذا الامتحان والبلاء الذي نزل بهم.

غير أن الصبر على البلاء يحوّل المحنة إلى منحة ، والعسر يسراً ، فيأتي الجواب سريعاً :"

أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ" " كلام مستأنف بقرينة افتتاحه "بألا " وهو بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر، بعد أن حصل لهم من قوارع صدر الآية ما ملأ القلوب رعباً ، والقصد منه إكرام هذه الأمة بأنها لا يبلغ ما يمسها مبلغ ما مس من قبلها ، وإكرام للرسول صلى الله عليه وسلم بألا يحتاج إلى قول ما قالته الرسل قبله من استبطاء نصر الله بأن يجئ نصر الله لها من الأمة قبل استبطائه " (٣).

وفي موضع آخر يبين الله تعالى أن ذلك واقع لكل من يدعو إلى الله تعالى من الرسل والأنبياء ومن سار في ركابهم من الدعاة والمصلحين ، حيث ينزل عليهم نصر الله تعالى وهم

---

(١) انظر جامع البيان ٢-٣٤١

(٢) رواه البخاري، الحديث رقم (٦٤٣) ، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر،رقم (٦٤٣).

(٣) التحرير والتنوير ٢/٣١٧ .

في ذروة الكرب والشدة ، يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾ يوسف (١١٠).

قال ابن جرير :" يقول تعالى ذكره : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى ، فدعوا من أرسلنا إليهم فكذبوهم ، وردوا ما أتوا به من عند الله ، حتى إذا استيأس الرسل الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله ،ويصدقوهم فيما أتوهم به من عند الله ، وظن الذين أرسلناهم إليهم من الأمم المكذبة أن الرسل الذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم ، جاءهم نصرنا.." (١) .

والاستيئاس هنا مبالغة في اليأس ، لشدة الكرب ، وضيق الحال، لكن الاستيئاس هنا هو مبالغة في اليأس من إيمان القوم وليس مبالغة في اليأس من نصر الله تعالى، وهذا هو الأقرب إلى حال الأنبياء والمرسلين ويؤكد ذلك ما أورده ابن جرير الطبري وغيره عن ابن أبي مليكة قال : قرأ ابن عباس : " حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا " فقال : كانوا بشراً ضعفوا ويئسوا ، قال ابن أبي مليكة : فذكرت ذلك لعروة ، فقال: قالت عائشة: معاذ الله ، ما حدث الله رسوله شيئاً قط إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت ، ولكن لم يزل البلاء بالرسل . حتى ظن الأنبياء أن من تبعهم قد كذبوهم ، فكانت تقرؤها قد كذّبوا تثقلها " (٢).

والحاصل؛ أن على الداعية الثقة بوعد الله تعالى ووعيده ، الوعد بنصر المؤمنين والوعيد بخذلان غيرهم ، " جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين".

ولهذا أثره النفسي الجلي في حياتنا ، إذا كنا نعلم أن النصر في النهاية بيد الله علماً يقينياً صادقاً، فيبقى أن نسير وفق منهج الله تعالى . ولا نلتفت لبنيات الطريق .

ومن جانب آخر علينا الثقة بنصر الله وقت شدة الأزمة ، لأن الفرج قادم لا محالة تصديقاً لوعد الله.

٣- النصر من عند الله تعالى :-

إذا ثبت أن للنصر علاقة بأمور الإنسان كلها وحياته الخاصة وصراعاته مع النفس أو الغير؛ يبقى أن يسأل المرء عن مصدر هذا النصر الذي يرتكن إليه ، ويبحث عنه.

والغرض من الحديث عن ذلك ألا يضيع المرء البوصلة ، فيجنح ذات اليمين وذات الشمال ، ولربما طلبه من غير القادر أو من العاجز عن النصر والمساعدة.

---

(١) جامع البيان ٨٢/٣.

(٢) المصدر السابق ٨٦/١٣-٨٧.

وقد أكدت آيات كثيرة في القرآن الكريم أن النصر لا يكون إلا من الله تعالى ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ ﴾ آل عمران (١٢٦) أي ليس من غيره ، فهو حصر وقصرعلى الله وحده القادر على النصر ، والقادر على إمداد عباده بجنود لا يعلمها إلا هو.

إذا كان الأمر كذلك فإن على المرء أن يوثق صلته بالله تعالى ، وهذا يؤدي إلى أن يتوكل المرء على الله وحده لا على غيره من البشر أو الآلهة المزعومة ، الأمر الذي سوف يورثه اطمئناناً وسكينة لا حدود لهما، إذا ما فعل الأسباب وأعد العدة لها .

ومن جانب آخر ، يؤكد القرآن هذه الحقيقة ، ويدحض ما يضادها في قوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ ﴾ آل عمران (١٦٠).

قال القرطبي رحمه الله :" إن ينصركم الله فلا غالب لكم " أي عليه توكلوا ؛ فإنه إن يعنكم ويمنعكم من عدوكم لن تغلبوا " وإن يخذلكم " يترككم من معونته ؛ " فمن ذا الذي ينصركم من بعده " أي : لا ينصركم أحد من بعده ، أي : من بعد خذلانه إياكم ، لأنه قال : " وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ"، والخذلان : ترك العون ، والمخذول ، المتروك : لا يعبأ به "⁽¹⁾ .

وهنا تقرير واضح أن النصر كل النصر بيد الله وحده لا بيد غيره وأنه إن يخذلنا فلن نجد من ينصرنا سواه ، لأن القوة والخذلان بيد الله لا بيد غيره ، ولذا وجب التوجه إليه ، والتوكل عليه ،وفعل الأسباب الموجبة للنصر.

" وهنا في قضية النصر والخذلان بوصفهما نتيجتين للمعركة – أية معركة – يرد المسلمين إلى قدر الله ومشيئة ، ويعلقهم بإرادة الله وقدرته ، إن ينصرهم الله فلا غالب لهم ، وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من بعده ، وهي الحقيقة المطلقة في هذا الوجود ، حيث لا قوة إلا قوة الله ، ولا قدرة إلا قدرته ولا مشيئة إلا مشيئته "⁽²⁾ .

وإذا علمنا أن كل شيء بمشيئة الله وقدره ، فإن رد الأمور إليه تعالى أمر مريح للنفس ومعز في المصيبة .

لكن من ناحية أخرى سبب في رجوع المرء إلى نفسه لمعرفة أسباب الهزيمة- كما في أُحد- وأسباب النصر والفوز كما في بدر.

(¹) الجامع لأحكام القرآن ١٦٣/٤ .

(²) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥٠٣/١.

" وفي التفكير في ذلك مجال واسع لمكاشفات الحقائق والعلل والأسباب والحكم والمنافع والمضار على قدر سعة التفكير الجائل في ذلك ، ففي هذا الخبر العظيم إطلاق للأفكار من عقالها ، وزج بها في مسار الفكر ، ومراكض العظات ، والسابقون الجياد " (١).

وقد أسلفت القول أن على المرء أن يوثق صلته بالله تعالى حتى يكون ضمن تلك الفئة التي يصطفيها الله للنصر ، لأن الله إذا اصطفاه للنصر ؛ فلا عليه بعد ذلك أن يكون أقل في العدد أو العدة، يقول تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣ ﴾ آل عمران (١٣).

فالآية نزلت في فئتين إحداهما فئة المؤمنين وهي قليلة ، والأخرى فئة الكفار ، ويراها المؤمنون مثليهم رأي العين ، فأيد الله المؤمنين على الرغم من قلة عددهم على الكفار على الرغم من كثرتهم، أليس في ذلك عبرة لأولي الأبصار؟! ووجه العبرة " أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة ، فتغلب الكثيرة بإذن الله ، وقد ورد في القرآن ما يمكن أن نفهم به سنته تعالى في مثل هذا التأييد ، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، يجب أخذه بجملته ، بل هذه الآية نفسها تهدي إلى السر في هذا النصر ، فإنه قال : " فئة تقاتل في سبيل الله " ومتى كان القتال في سبيل الله ، أي : سبيل حماية الحق والدفاع عن الدين وأهله؛ فإن النفس تتوجه إليه بكل ما فيها من قوة وشعور ووجدان ، وما يمكنها من تدبير واستعداد مع الثقة بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده" (٢).

٤- شروط النصر :

أ- أن يطلب النصر من الله وحده :

ثبت قبل قليل أن الله تعالى هو مصدر النصر الوحيد ، فهو ينصر من يشاء ويخذل من يريد ، وإذا تأكد ذلك ؛ علم أن على المرء أن يطلب النصر من الله وحده لا من غيره ، وطريق ذلك الوحيد أن يتعلق بالله وحده وأن يكون الدعاء ديدنه وهجّيراه ، وهذا هو حال الأنبياء وأتباعهم من المصلحين والصالحين منذ القدم.

ففي قصة طالوت حين برزوا لجالوت قالوا :﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ ﴾ البقرة (٢٥٠).

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/٤.

(٢) تفسير القرآن الحكيم ، لمحمد رشيد رضا ٢٣٥/٣.

لقد كان قوم طالوت قلة ، وكان عدوهم قوم جالوت كثرة ، ولما واجهوهم دعوا الله تعالى أن يلهمهم الصبر ويثبت أقدامهم فلا يفروا ولا يعجزوا ، بل يسكب عليهم طمأنينة وثباتاً ، عبرت عنهما الآية بقوله " أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا " .

وهذا أحد الأنبياء وهو نوح عليه السلام يناجي ربه قائلاً :"قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ " المؤمنون (٢٦) فهو يدعو الله تعالى أن ينتقم منهم بسبب تكذيبهم لدعوته " فجعل حظ نفسه فيما اعتدوا عليه ملغى ، واهتم بحظ الرسالة عن الله ، لأن الاعتداء على الرسول استخفاف بمن أرسله "(١) .

ولأن هذا النبي دعا الله وحده ، ولم يدع غيره ، أجاب دعاءه فقال :" قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ " أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به " (٢) ، وهكذا كان ، حيث عوقب قوم نوح بالغرق.

وإذا وصلنا إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته ، نجد أن غزوة أحد حدث فيها ما حدث من هزيمة للمسلمين بادئ ذي بدء ، ثم إشاعة قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، والارتباك الذي حدث لهم ، فيجيئ القرآن معقباً على ذلك كله فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾(آل عمران (١٤٦-١٤٧).

فالله يعاتب المؤمنين الذين حدث لهم ما حدث في تلك الغزوة ، ويطلب منهم أن يكونوا كأولئك القوم حين قتلت أنبياؤهم أو أصحابهم ، فلم يكن ذلك سبباً في وهنهم أو ضعفهم واستكانتهم لعدوهم ، بل سألوا ربهم النصر والظفر على عدوهم ، حتى ينصركم الله كما نصرهم .

قال ابن عاشور: "هذه الآية عطف على " فما وهنوا " لأنه لما وصفهم برباطه الجأش، وثبات القلب وصفهم بعد ذلك بما يدل على الثبات من أقوال اللسان التي تجري عليه عند الإضطراب والجزع ، أي : أن ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردد في صدق وعد الله ، ولا تذمر منهم ، بل علموا أن ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، أو لعله كان جزاء على تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه ؛ أو في الوفاء بأمانة التكليف ، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: " ربنا اغفر لنا ذنوبنا " (٣).

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٥٥.

(٣) التحرير والتنوير ٤/١١٩.

فالذنوب من أهم أسباب الهزيمة ، والبعد عنها من أهم أسباب النصر ، ولذلك طلبوا المغفرة، وسألوها من الله وحده ، كما سألوه الثبات عند ملاقاة العدو والنصر على الكافرين.

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم طافحة باللجوء إلى الله تعالى في كل وقت ومنها الحروب والغزوات ، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا لقي العدو يقول : " **اللهم بك أصول وبك أجول وبك أسير**"(١)، كما كان يقول إذا لقي العدو أيضاً : "اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم "(٢). وفي يوم بدر دعا عليه الصلاة والسلام حتى سقط رداؤه عن منكبيه يستنجز الله وعده(٣).

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء:
" **اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني**"(٤) .

وهذا كله فيه أبلغ الدلالة على أن النصر والثبات لا يطلب ولا يجب أن يطلب من غير الله تعالى ، لأنه القادر وحده على هذا الأمر دون غيره.

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن القرآن لم يكتف ببيان الجهة المؤهلة للنصر فحسب بل بين عجز الشركاء عن النصر في آيات كثيرة ، ومن هذه الآيات :"﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥ ﴾ " يس (٧٥) .

قال ابن كثير :" أي : لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء" (٥).

ولم يكتف الله سبحانه وتعالى ببيان عجز الشركاء عن النصر ، بل وبخ أولئك الذين يطلبون النصر من غيره فقال : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٨ ﴾ الأحقاف (٢٨) .

" والمقصود بهذا التوبيخ ؛ تخطئة الأمم الذين اتخذوا الأصنام للنصر والدفع ، وذلك مستعمل تعريضاً بالسامعين المماثلين لهم في عبادة آلهة دون الله ، استتماماً للموعظة والتوبيخ بطريق التنظير وقياس التمثيل ، ولذلك عقب بقوله : " بل ضلوا عنهم" ، لأن التوبيخ آل إلى معنى نفي النصر " (٦) .

---

(١) رواه أحمد الحديث ، كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة ، رقم (٦٥٣) .

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة باب ما يقول الرجل، رقم (١٣١٤).

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار، رقم (٤٨٩٦).

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير، رقم (٣٣٠٩) .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٣/٥٨٨.

(٦) التحرير والتنوير ٢٦/٥٥/٥٦.

ب- الإيمان :

لأن النصر نتيجة ، ولأن النصر عاقبة ؛ فلا يمكن أن يمنحه الله لكل أحد ، بل يمنحه لمن هو أهل له ، ممن أحبهم الله تعالى ، بل إن الله تعالى أوجب على نفسه نصرة هذا النوع من الناس في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ ﴾ غافر(٥١).

في هذه الآية التي جاءت للتعقيب على صراع موسى عليه السلام وأتباعه مع فرعون ورهطه، تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم جزماً بأن الله ناصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم القيامة.

والنصر – هنا – ربما كان بالحجة والبرهان ، وإعلاء الحق ، وربما كان بالانتقام ودحر الباطل بإهلاك المكذبين ، وإنجاء الرسل وأتباعهم (١). وربما كان بكليهما ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم " **من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب** " (٢) .

وكما هو النصر في الدنيا ، فإنه يكون في الآخرة من باب الأولى بالثواب للرسل وأتباعهم ، والعقاب لمخالفيهم بالعذاب.

ولا يخفى أن التعبير بـ " ننصر " يدل على استمرارية هذا النصر ، وتجدده وتنوعه طيلة هذه الدنيا وفي الآخرة ، وقد وردت له صور كثيرة في القرآن (٣).

لكن المهم في هذا كله أن من رام نصر الله تعالى له فلابد أن يحقق الإيمان والعبودية الكاملة لله تعالى ، ويخلص قلبه من أدران الشرك أو قوادح الإيمان ، وإذا تحقق له ذلك ؛ فإن الله تعالى أخذ على نفسه نصرته حين قال : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ ﴾ الروم (٤٧).

قال ابن عاشور : " وكلمة " حقاً علينا " من صيغ الالتزام .. وقد اختصر طريق الإفصاح عن هذا الغرض ، أعني غرض الوعد بالنصر والوعيد ، فأدرج تحت ذكر النصر معنى الانتصار، وأدرج ذكر الفريقين ، فريق المصدقين الموعود ، وفريق المكذبين المتوعد ، وقد أخلى الكلام أولاً عن ذكرهما " (٤).

---

(١) انظر: جامع البيان ٧٤/٢٤ والجامع لأحكام القرآن ٢١٠/١٥.

(٢) صحيح البخاري رقم الحديث ٦٠٢١ كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٠٢١).

(٣) انظر التحرير والتنوير ١٦٧/٢٤.

(٤) التحرير والتنوير ١٢٠/٢١.

وقال ابن كثير : " أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً كقوله تعــالى :" كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ " الأنعام (٥٤) (١).

فإذا كان الله تعالى قد أوجب على نفسه نصر المؤمنين ، يبقى أن نرجع لأنفسنا لنتأكد من أننا مؤمنون حقاً أم لا ؟ فإذا كنا كذلك؛ فنحن داخلون تحت الآية ، ويجب ألا نشغل أنفسنا بالانتصار لأنه قادم لا محالة ، وإذا كان الأمر غير ذلك ، وجب علينا أن نراجع أنفسنا .

جـ- نصرة الله :

مما يدعّم مسألة الإيمان بالله تعالى نصرة الله ونصرة رسوله صلى الله عليــه وســلم ، وإذا تحقق ذلك تحقق النصر من عند الله تعالى .

وكما أكدّ الله تعالى نصرة المؤمنين؛ فقد أكد نصرة من ينصر الله ، فقــال : " وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ "ونصرة الله تعالى هي نصرة دينه ، لأنهم بــدفاعهم ينصرون دين الله ، فكأنهم نصروا الله "(٢).

ولا شك أن القصد بنصرة دين الله إعلاء كلمة الله تعالى بكل ما يملك الإنــسان ، وتأمــل التأكيد في هذه الآية، إضافة إلى الشرط في آية أخرى ، وهي قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾ محمد (٧) ، فقد رتب النصرة والتثبيت على نصر الله ، ونصر الله – كما أسفلت- إعلاء كلمته ببيان الحق ، والدعوة إليه ، والصبر علــى الأذى فيه ، ومجاهدة أعدائه ، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان.

ولا شك أن هذا أمر شاق دونه مصاعب جمة ، فلربما حاول الإنسان ذلك ، لكنه لم يستطعه، ولذلك قال : " ويثبت أقدامكم " ، فليس المرء بحاجة إلى النصر فحسب ؛ بل بحاجة إلى الثبات أيضاً ، فلربما زلت قدمه بسب من شهوة أو شبهة .

قال ابن عاشور : " وجئ في الشرط بحرف (إن) الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط، للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ، ليجعل المطلوب به كالذي يشك في وفائه به"(٣).

إذن فالذي يجب أن نشغل بالنا هو كيف ننصر الله تعالى ، بأن نكون عند طاعته كل حــين ووقت ، وألا يجدنا عند محارمه في أي حين ووقت ، وإذا كان المرء عند طاعة الله تعالى؛ فإن

---

(١) النقل عن تفسير القرآن العظيم ٤٤٦/٣.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٩/١٧.

(٣) التحرير والتنوير ٨٥/٢٦.

انتصاره مضمون بلا شك، إذا عمل بالأسباب وأعد العدة لذلك ، بكمل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، حتى يكون المرء جامعاً بين الأسباب الحسية والمعنوية.

٥- نفي النصر عن الكافرين :

ربما يتبادر إلى ذهن المرء بعض الوهن والشك ، وهو يشاهد بعض أمم الكفر تعيث في بلاد المسلمين فساداً ، والمسلمون في حال ضعف وهوان .

غير أن النظرة الشرعية الصحيحة تقول إن الكافر لا يمكن أن ينتصر بحال من الأحوال، وإن انتصر فلأن المسلم ربما يكون مقصراً في نفسه أو مفرّطاً في حق ربه .

يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ ﴾(القمر (٤٤-٤٥). تجتاح الكافر أحياناً نشوة الغرور ، فيعجب بقوته فيقول : " مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً " فصلت (١٥) ، ويتوقع أنه لن يقف أحد في وجهه " أم يقولون نحن جميع منتصر " ، فكأن اجتماع تحالف السوء " يغني عنهم من أرادهم بسوء" (١).

وما علم هؤلاء المساكين أنهم يقفون أمام دين الله وأمام رسوله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين، وهيهات أن يستطيعوا ذلك ، لأن الآية جاءت حاسمة : " سيهزم الجمع ويولون الدبر " ،" فوقع كما أخبر ، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر ، وقتلت صناديدهم، وكبراؤهم فأذلوا، ونصر الله نبيه وحزبه المؤمنين " (٢).

وليس الأمر مقتصراً على غزوة بدر ، بل إنه واقع في كل زمان ومكان ، حين يتصدى الكفر للإيمان ، فإن الله يزهقه ويمحقه ، ألم يقل الله تعالى " ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ٤٥ ﴾ الذاريات (٤٥) لقد تضمنت هذه الآية أمرين ، أحدهما مترتب على الآخر ، وهما عدم القيام، وعدم الانتصار ، وكيف بإنسان هالك أن ينتصر؟!.

قال القرطبي : " فما استطاعوا من قيام " قيل : معناه : من نهوض ، وقيل: ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم . تقول : لا أقوم لهذا الأمر ،أي : لا أطيقه " (٣) ، فإذا كان المرء عاجزاً عن القيام أنى له الانتصار ؟!!

وفي هذا ملمح مهم جداً ألا وهو هلاك الكافرين فضلاً عن هزيمتهم المحقة ، وقصص كثير من الأمم مع أنبيائهم خير شاهد على ذلك ، فإنهم حين حلّ بهم العذاب ، لم يستطيعوا القيام، وحين

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٨٥/٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص(٩٨٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٥/١٧.

كتب الله نصرة أنبيائه وأوليائه لم يقف أمام ذلك قلة عدد أو ضعف عُدد ، بل كان قرب أحد الفريقين إلى الله تعالى مسألة حاسمة في ذلك .

إن المطلع على الإحصائيات التي تنشرها وسائل الإعلام المختلفة والمتعلقة بكثرة عدد الداخلين في الإسلام يوماً بعد يوم في أماكن شتى من الأرض؛ يتأكد لديه بشكل قاطع أن هذا الانتصار لهذا الدين بفضل الله تعالى على الرغم من تقصيرنا في نشره، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

٦- شكر الله عند النصر :

مما سبق تبين أن الله سبحانه وتعالى هو المصدر الوحيد للنصر ، وأنه يعطيه من يشاء ، ويمنعه عمن يريد بحسب حكمته ومشيئته سبحانه ، في الوقت الذي يريد، والصورة التي يريد ، وليس لأحد من بني البشر يد في هذا النصر ، لكن الله تعالى يجريه على أيديهم ، فيكون لهم شرف تحقيق النصر بفضل الله تعالى .

غير أن هذا النصر الذي ذكرت مواصفاته آنفاً إذا تحقق للعبد ؛ فماذا يجب عليه أن يفعل؟ يجيب القرآن عن ذلك بقوله تعالى :﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ النصر (١-٣) .

في هذه السورة الكريمة يعلّم الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكل من يقرأ هذه السورة إلى يوم القيامة كيفية التعامل عند الانتصار.

إن فئة ما من الناس كان الانتصار سبباً في كبرهم وغرورهم ؛ بل كان سبباً في سحق مخالفيهم ومعارضيهم ، وإيداعهم القبور أو السجون أو النفي والتنكيل ، وهو كثير على مدار الأزمنة والأمكنة الماضية والمعاصرة.

لكن الله سبحانه وتعالى رسم صورة جميلة يجب أن يتمثلها كل منتصر " فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا" .

قال ابن كثير رحمه الله " فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمده ونشكره ونسبحه ، يعني: نصلي له ونستغفره ، معنى : مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة " (١).

والنصر هنا نصر عام يدخل فيه كفار قريش ويدخل فيه غيرهم ، كما أن الفتح يدخل فيه فتح مكة وقيل " فتح المدائن والقصور ، وقيل افتح سائر البلاد ، وقيل ما فتح الله عليه من العلوم" (٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦٠١/٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٧/٢٠.

وغرضي من ذلك أن أقول إن الأمر بالتسبيح والاستغفار عام عند كل نصر وعند كل فتح ، وليس خاصاً بحادثة عين.

لقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الرباني ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن** " (١).

قال ابن عاشور : " ويجوز أن يكون التسبيح المأمور به تسبيح ابتهاج وتعجب من تيسير الله تعالى له ما لا يخطر ببال أحد أن يتم له ذلك .... ، وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيد لإجابة استغفاره ، على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة " (٢).

ولقائل أن يقول : إنهم قد خرجوا من عبادة ؛ ومع ذلك أمروا بالاستغفار ، على الرغم من أنهم لم يرتكبوا معصية ، فكيف ذلك ؟!.

يجاب عن ذلك بأن يقال: إن المسلم مأمور بالاستغفار قبل وأثناء وبعد كل عبارة ، والصلاة خير دليل على ذلك .

وبيان ذلك أن المنتصر ربما يتكبر ويغترّ بنفسه أو بعمله ، فيؤدي به ذلك إلى شيء من احتقار الآخرين ، وهذا لا شك خطأ.

ومن جانب آخر ؛ فقد يلاقي المنتصر عنتاً وتعباً شديدين ، فلربما ييأس ويقنط من رحمة الله – كما مر– ، فيأتيه النصر بعد طول انتظار ، وربما شك في موعود الله .

" وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار، ففيه إيحاء للنفس وإشعار في لحظة الزهو، والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز ، فأولى أن تطامن من كبريائها ، وتطلب العفو من ربها ... ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلباً للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين ، ليرقب المنتصر الله فيهم ، فهو الذي سلطه عليهم" (٣).

تلك آداب المنتصرين التي أدّب الله بها أصفياءه على مرّ العصور ، فهذا نبي الله يوسف عليه السلام ، حين تحقق له كل ما أراد ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وتحقق تأويل رؤياه ، حين تحقق كل ذلك ؛ تأمل ماذا يقول : ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِى مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِى مِن

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب (١١٠) ، رقم الحديث (٤٩٦٨).

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٣-٥٩٤.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٩٦-٣٩٩٧.

تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ يوسف (١٠١) .

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام حين رأى عرش بلقيس أمامه قال : " هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ " النمل (٤٠).

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة فاتحاً دخل متواضعاً مخبتاً متذللاً لله تعالى، كما عفا عن كل من أساء إليه : " اذهبوا فأنتم الطلقاء" .

إنه أدب القرآن الذي أدّب به المسلم ، حتى مع أعدائه ، والذي يجب أن يستشعره كل منتصر.

الخاتمه

بعد أن عشت مع هذا البحث الصغير؛ يمكنني أن ألخص جملة من أهم الأفكار الواردة فيه، ومنها :-

- يعطي المعنى اللغوي أفاقاً واسعة للنصر تتجاوز الصراع إلى الوقوف عند حدود الله تعالى، والعطاء بكل أنواعه ، ورد الظالم عن ظلمه ، وانتصار المظلوم من ظالمه.
- للظلم علاقة كبيرة بالانتصار ، لأن الله أباح الانتصار من الظالم بالحق ودون تعد أو تجاوز ، إذا كان هذا الظالم معلناً فجوره متجاوزاً في ظلمه، والمنتصر قادر على أن ينتصر منه.

ويجب على أفراد المجتمع أن يتعاونوا فيما بينهم لإزالة الظلم ومقاومة البغي، كل بحسبه.

- كما أن للانتصار علاقة باليأس ، فإن الانتصار لا يتحقق دون أن يبتلى المرء ، ويمر بالشدائد والصعاب ، حتى يصل إلى مرحلة يخشى فيها عدم نزول النصر ، لشدة استبطائه له ، وقد حدث ذلك في غزوات وحروب كثيرة، غير أن الأهم أن يثق الإنسان بوعد الله تعالى بنصر المؤمنين، ووعيده بخذلان غيرهم.
- لابد للمؤمن أن يتيقن أن النصر من عند الله وحده دون غيره، فهو القادر وحده على النصر وهو القادر وحده على الخذلان بحسب حكمته ومشيئته ، ولا شك أن معرفة ذلك أمر مريح للنفس ، ومعزّ في المصيبة.
- لكن لا يكفي أن يوقن الإنسان بأن الله هو الناصر فحسب بل يجب عليه أن يسعى بكل ما أوتي ليكون من حزب الله المنصورين، فيوثق صلته بالله ، ويبتعد عن كل ما يكون سبباً للخذلان.
- وإذا كان النصر من عند الله وحده ؛ فليس علينا سوى طلبه منه دون غيره ، وهذا ديدن الأنبياء وأتباعهم على مر العصور ، حيث كانوا يدعون الله بذلك .
- والطلب من الله وحده أحد أهم أسباب الانتصار ، لأن غيره ليس قادراً على ذلك مهما علا شأنه ، نظراً لعجزه.
- ويأتي الإيمان سبباً آخر للنصر ، لأن الله تعالى أخذ عهداً على نفسه بنصرة المؤمنين، وباستمرارية هذه النصرة في الدنيا ويوم القيامة .
- ومن أهم أسباب نصر الله للعبد ، نصر العبد لله ، ونصر العبد لله أن يجده عند طاعاته وبعيداً عن محارمه ، وذلك بإعلان الحق والدعوة إليه ، ومجاهدة أعدائه، وإذا كان المرء كذلك فإنه منتصر لا محاله ، إذا أعد العدة الحسية والمعنوية .
- النصر منفي عن الكافرين والظالمين والمنافقين ، حتى لو كانوا في الظاهر منتصرين فإن الله سوف يخذلهم ، وقد أخذ على نفسه عهداً بذلك ، وقصص إهلاك الأمم التي عصت الأنبياء واضحة جلية.

- حين ينتصر المرء ماذا يجب عليه ؟

لم يترك القرآن هذا الأمر دون جواب ، بل أوضحه بكل أنواع الوضوح ، فأمر المنتصر أن يسبح بحمد الله ويستغفره ، لكي لا يطغى ولا يتجبر ولا يصاب بالغرور أو العجب ، ولربما ارتكب خطأ أو معصية أو تقصيراً في جانب من الجوانب ، فيأتي التسبيح والاستغفار مكفراً عن ذلك .

- وإذا شرع المنتصر في الاستغفار أورثه ذلك إخباتاً وتواضعاً مع الناس كلهم ، فلا يظلمهم أو يسيء إليهم أو يبالغ في ذلك ، وهذا ديدن الأنبياء وأتباعهم في جميع انتصاراتهم على مرّ السنين.
- العودة إلى كتاب الله تعالى والتعامل معه من خلال جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد، مفيد جداً في الإلمام بطريق معالجة القرآن لأمر من الأمور ، إضافة إلى بيان إعجازه.